

## دور الأودية في التجمعات البشرية (وادي القيرا نموذجا)

د . الطيب بن دحان

جامعة طاهري محمد بشار

الملخص:

تمثل الأودية دورا أساسيا في تشكيل التجمعات البشرية، حيث تتمركز جل القرى والمد اشرعلى ضفاف مجاري المياه، وعلى جانب الأودية تكون الزراعة ويتم غرس الأشجار، وحول هذا الفضاء تصلح تربية المواشي بكل أصنافها، وبالتالي يحصل الاحتكاك وتتلاقح الأفكار، مما يدفع بالأسر إلى المصاهرة، فتكون المحبة، ويعم الاستقرار، هذا ما سجله الفنان الشعبي لبيب وادي قير شاهدا على هذا الدور.

**Abstract :**

Valleys play an important role in the reconstruction of the place where villages and rural communities arise on the shores of the valleys. Artists were attracted by this part of nature and the Valley of Ghir is within this interest.

فضاء الوادي :

حظي المكان بقداسة عند الشعوب قديما وحديثا، خاصة إذا كان الأمر متعلقا بالمنهل الذي يعد رمزا للحياة، لعل المكان هو الرباط الوثيق الذي ساهم في إثبات كينونة الإنسان، قد يكون محل خصام، من أجله يقوم النزاع، ويشتعل فتيل الحرب وصدق من قال :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناها وإن كانوا غضابا

لسد مأرب مكانة عند أهل بلقيس، ومكة المكرمة والمدينة المنورة عند العرب والمسلمين

و النيل عند المصريين، ونهر لأسان عند الفرنسيين، والأمازون عند الأمريكيين .

ولان المكان أحد المكونات هذه الحياة، والحديث عن العيش والاستقرار في غياب عنصر الماء

يعد حلقة مفقودة .

يطرح المكان جملة من التناقضات، أنشأت علاقة سلبية وإيجابية بين العناصر المكونة لهوية الإنسان، قد تكون طيبة يعيش أهلها في سعادة وامن واستقرار(حاملة الخير والخصب، والحياة، وأن لمياهها فوائد النظافة وخصائص الشفاء ) 1 أو تكون سلبية مأساوية قاسية يمجتها الإنسان، حيث واجه عدة مفاجآت في تغيير الوقائع .

من هنا يبقى المكان مهيمن على الذهنية العربية مجسدا في النصوص الأدبية، ولعل العلاقة

(بين الماء والمكان المقدس لهل أكثر من معنى، فما الحلول بمكان أو الانتقال

منه إلى آخر ألا بسبب الماء، أو في سبيل الماء... وعديد النزاعات والحروب كانت تنشب بسبب بئر

أو عين ماء) 2. وبالتالي لازم المكان النص الأدبي، وبات مهيمن على ساحته الشعرية .

ارتبط الانسان بهذا الحيز، فيه رأى النور، وما بين صرخة ولادته واللحظة التي سبقت انتقاله إلى عالم البقاء الابدي، واجه في حياته جملة من العواقب، قاده فكره إلى البحث عن مخرج لفك رموز هذا الكون المعقد، وفهم قضاياه، وكائناته.

بعد ترعرعه بين أحضانه، نمت مخيلته في أرجائه، فكان خرابه انكسارا داخليا في نفسيته وهو ما دافع الشعراء إلى الوقوف على الطلل، ليكون الفراغ الذي أحدثه المكان، فوجد فيه الشاعر (المعادل الوجداني لفقدان حالة الاستقرار) 3.

هكذا حرك فيه غريزة الاشتياق حيث تقاطع فيه الحب والكره، الحياة والموت (إن كثرة تأملات ذلك الإنسان البدائي في مظاهر الكون وقوى الطبيعة المختلفة، جعلته يتراوح بين قطبي مبدأ الضدية، أو الثنائية كالخير والشر، والبقاء والفناء، تتقاذفه أفكار الأمل، وقساوة اليأس، وجمال الخير، وفتنة الشر، والرغبة في الحياة والبقاء، والخوف من الموت والفناء) 4.

قد تكون كثرة التأملات جعلت الذات الإنسانية لم تجد (خلاصا من واقعها، سوى بتمائل موقعها في زمن التخيل) 5.

أخذت الأودية والينابيع مكانة خاصة عند كل إنسان، مياها إلهام للشعراء، مما سهل على الانثروبولوجي دراستها بحث (في الإدراك العقلي للإنسان، وابتكاراته، ومعتقداته، ووسائل اتصالاته) 6، من هنا يمكننا أن نكشف عن العلاقة التي نسجتها المجتمعات على ضفاف الأودية والينابيع . هيمنت الامكنة على الذات، ولعل الوادي اكتسب هالة من التقديس، نسجت حوله الاساطير، وحيكت في شأنه القصص .

يخبرنا التراث العربي بواد عبقر الذي تسكنه الجن وتنسب العرب كل تفوق إلى شيطانه . في الوادي أسكن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام زوجه وابنه إسماعيل بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم .

وفي الوادي كلم الله عز وجل سيدنا موسى ليه السلام (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) 7. يتنعم الأهل والخلان بخيراته، في هذا الوادي كان أول لقاء بين جميل وبثينة :  
ألا ليت شعري هل أبين ليلة بوادي القرى، إني إذا لسعيد.  
كل ذلك يؤكد مكانة الوادي المستمدة من أصول ضاربة العمق في جذور الحضارة العربية، الأمر الذي جعله يحظى باهتمام في المخيلة الشعبية .

#### مكانة وادي قير :

تجسدت كل المعطيات السابقة، منحتة الذاكرة الشعبية منزلة خاصة (تغنى به الشعراء قديما وحديثا، ذكروه أيام الخصب والجذب) 8، وبالتالي أصبحت له منزلة مرموقة، حرك خوالج الشعراء، ونظروا إليه من زوايا مختلفة، هذا يعجبه فيضانه، وذاك يربعه سيلانه، وآخر يتحسر على جفافه. يقول الشاعر علي ولد لجمر القيزي :

\* كنت يا سلطان الودان كي المليك

ودايرة الناس الفرعة معرضة لك

بالطبل والغيطة والخيل والتحريك

سلوا رجالك

ياك كنت أنت مجاهد صح مفيد

و كنت غ، في الحرمة وتزيد في الشنايع

و الموقف نفسه عبر عنه الشاعر حينما أصبح وادي قير خاليا من السكان، فراح سائله عن

الجفاء، يقول داودي عبد الرزاق:

راني نسولك يا قير سوال الخوت لله عيد لي وتكلم

راني نسولك بالثبات

على وقت فات

رجال يركبوا عودات عراوا البلاد

اعتنى الفنان الشعبي بوادي قير الذي لم يكن كباقي الأودية، على ضفافه استقر سكانه،

ينهلون من خيراته فهو سلطان يبتهج لقدمه الجميع، إن المعالم التي رفعته إلى القداسة والتبجيل

حيث يشيع منه فضاء العظمة، فهو واهب الحياة، يحي الأرض بعد موتها

(وجعلنا من الماء كل شيء حي) 9 (والله خلق كل دابة من ماء) 10.

ليس غريبا أن يكون الماء منبععا تفرعت منه جميع الكائنات، هكذا حال واد قير في مخيلة

الشاعر منصور العربي الذي نقل صورة المشية وهي على ضفافه :

والبل والغنم والعادة والخيل وفحول العرب يجوك ظفيرة

وشيوخ الطبل رقدوا بك الليل يوقظوا الغشيم طلوع القمر

ورجال يقفوا في يوم الزلزال وابطال الصح ما ترضى بالحقرة

هكذا أصبح مرتعا للماشية ونقطة التقاء التجمعات السكانية، يحرثون ساعة فيضانه،

لتصل منتجاتهم إلى أقصى واد الساورة هذا ما دونته مخيلة الشاعر بلال بن علي:

سال على واد قير نعطيكم لخبار كان ماليه معمره ايبيل واغنم

عياد تتنازه فيه وفراسين احرار وخيام مقهودات عمرو بعوارم

رافد ناسو وزايد معاهم الجار لقبيلة طاهجة وفراسين تزطم

بهذه الصورة كان واد قير يجمع القبيلة ويزداد اعتمادها على الفلاحة وتربية الخيول التي

تجاوزت خمسة آلاف رأس .

ذكر بعض الدارسين أن سكان المنطقة اخذوا يمارسون وظائف أخرى مثل التجارة كما هو الحال بمتليلي وغرداية والمنيعية (و هذا أيضا شأن أولاد جريرو وذوي منيع في الصحراء الغربية فهم بين بدواة وحضارة) 11.

لعل كثرة الماء سبب في تعمير المكان، وإقامة المجتمعات، وبذلك يصبح وادي قير مدرسة ترتشف من حوضه الصور والأفكار التي تعبر عما يخالج سكانه .

يمنح الواد الخيرات للناس جميعا، يقطعون المسافات والفيافي للوصول إليه، هو رمز للسخاء والعطاء، والشاعر إذ يصف المنظر الطبيعي لهذا الوادي الذي كان سببا في إرساء قواعد التجمع البشري إذ( يحس بجمال الطبيعة، ويهيم بها، ويصف مناظرها) 12

الرومانتيكية، وبالتالي يربط بين مكانة الوادي والحياة الاجتماعية للسكان باعتبار(أن الظواهر الاجتماعية الجزئية، تؤدي وظائف جزئية معينة، في إطار نسق من الظواهر لتؤسس أو تبني وظيفة كلية وهي تكيف المجتمع مع محيطه) 13، لذا أصبح سكان المنطقة يسايرون الوضع الاقتصادي والاجتماعي مؤثرين ومتأثرين .

ربط الوادي بين أفراد المجتمع في علاقة نفعية تكاملية خاصة إذا علمنا أن سكان واد الساورة – كما يسمى في إحدى محطاته – يقصدونه لينتفوا من خيراتهم مما يتولد عنه التقاطع الثقافي

و بالتالي (قد تتغير الذهنيات والتصورات والرؤى ) 14 كما يرى ذلك العالمان الانجليزيان "كوهين" و"مايليت"، كل ذلك سببه المياه المتدفقة على ضفافه كما يرى الشاعر بن عيسى سعيداني:

حرث النعمة وكثرة الماء والناس الطالبة في القصد تجيه

من هنا اصبح الوادي محجة للزائرين يأتون إليه من كل فج عميق لا سيما ساعة فيضانه كما

قال شاعر المنطقة احمد كرومي :

جاء امحمل وجايب الطوف

ماه مزلسوف

منابر الجمة حد الشوف

جاء امطيمم

ذاك ربح البكمة والنوق يا القنطان لم عربك تقدم ما يكون تالي

زيانت الساعة وتقلبت، الحال يزيان ياالوادي الغالي

هذا هو منظره الجميل حتى وإن كان ماؤه (هائجا مائجا وطوفانا تعاقب به البشرية، فيأتي

على كل شيء ولكنه في أن ينبئ بتجدد الحياة، على وجه الأرض، وبخلق جديد) 15 إن مخاطبة الوادي بهذه الصيغ تجعلنا نتأمل قداسته وانعاده النفعية التي لا تنضب .

إن العناية بتربية الحيوانات وما تؤديه من وظائف لها دلالات عميقة تنسجم في الخيال فترمز

إلى السعادة والرخاء كما يرى ذلك الشاعر منصور العربي :

ويرتع العزيلة فيك الكساب وخيام جاياك غا في النظرة  
ندوات يعجبوا وخلاقك ترطاب ورجال تنجرح بالجوود وتبرا  
و العزوالطرب والجود والإيمان والقود ما يخالف فيه النظرة  
وربيع في الخبط على كل الألوان واللي يبوهوه يعطوه بشارة  
خاصة زمن الحصاد حيث تعج المنطقة بالزائرين، يأتون من كل حذب وصوب، أفرادا وزرافات  
كما يصور الشاعر:

كان فيك ربيع منور  
نواده خضر  
كل يوم عقلك تنقر لها شباك  
كان شانك عندي من كل جهة غالي  
نطلب الله يعينك من فضال الامزان

تورد اللي عطشانه فيك يا الغالي

الوادي مصدر الماء والغذاء ولكل منهما مكانة، وعلى جسرها تنشأ الحياة، وتتشكل المجتمعات  
وتنسج العلاقات بين الأفراد لان ( الكائنات البشرية تعيش في تعاون مشترك لكي تحافظ على بقاء  
ودوام الأنواع ) 16 كما يرى كل من كيلر وسيمر.

هذه القيم جسدتها المخيلة الشعبية المبنية على مرجعية دينية، فوادي قير وما فيه من مزايا  
يتقاطع مع الوادي الذي وضع فيه سيدنا إسماعيل عليه السلام مع أمه السيدة هاجر، وهو ما دفع  
المبدع أن يثبت الصلة بينهما، فكما يرتوي الحجيج من ماء زمزم العذب، كذلك يحج البدوي وسكان  
الساورة ليتخذونه مرتعا لماشيتهم، تقام على ضفافه الولائم والأعراس، فتدب فيه الحياة، هكذا احتل  
وادي قير مكانة في القلوب وصرخ الشاعر المطلق قائلا:

منين كانت عربك تترار  
جاية في الخيار  
بجاه العي الجبار عايشة في ضراك .  
منين كانوا فيك دواوير  
حاطة قير

إلا أن فيضانه يشكل خطرا على سكانه، كم من معالم جرفها ومن أنفوس أغرقها :

كم من روح قبيل ديت بالفضاحة  
فيك تشمت وجيت في ساعة الليالي  
جاء محمل بماج طبولها تهالي  
تليت تخلع الناس اللي معاك سكان  
يا الواد الغالي

دور العلم في تغيير مسار الواد :

ساهم التطور التكنولوجي في تغيير وضعية الوادي، هاجر السكان وتفرقت القبائل. واختارت المدن مسكنا لها، قطعوا معه صلة الوفاء، ونقل الشاعر تلك الصورة القائمة :

مالك تليت غيطان منين صدت

عربك، عرات الاوطان يا الواد الغالي .

انتقل الشاعر بمخيلته إلى زمن ليس بالقرب، حيث كان يعج بالحركة والحياة، حرر الشاعر

(الكلمات من قيودها، وهذا حدث تلقائي وغير واع، وهو من مظاهر الإبداع، والقدرة عليه .) 17

الشاعر المفلق هو الذي ينشئ علاقة بين الزمنين الحاضر والماضي، يستحضر الصور البعيدة

ليؤثر في نفسية الملتقي، مثلما يقول الشاعر على واد قير

\*متين كان ضريب النقار عند ناس القحار

منين كانوا فيك عزائل أمات حيران

مقفين ضلالات على النساء تشالي

ودايرين المروح قعدت فيك تفك الغيضان

يا الواد الغالي

ما حدث لواد قير يهيج الخواطر ويرتبط بأحاسيس الشاعر، فيرتبط بمحتوى النص وهو ما

يلائم رؤية دور كايم للمكان حيث كان يقول (إن المكان ليس ذلك الشيء المتجانس كما يتصوره كانط،

ولو كان ذلك لاستحال على العقل إدراكه أو تصوره تصورا موضوعيا، إذ أن التصور المكاني إنما

يتألف بالضرورة من نسق مرتب من الأشياء والموضوعات المستمدة من معطيات التجربة الحسية ...،

ومن خلال هذا الإدراك لاجتماعي للمكان يستطيع الإنسان أن يتعرف على حقائق العالم الخارجي .)

18

ربما بناء سد جرف التربة جعل السكان يتناسون ما قدمه الواد من جميل، أصبح اليم تتحكم

فيه آلة حديدية مشدودة بأسمنت متين، تفتح له المجال تارة وأخرى تسد في وجهه الأبواب كما يرى

ذلك الشاعر

\*و الزمان عليك تحول خليت ورشيت

صحتك كانت مكمولة بغير لومة

بين تلك الرؤية الجمالية للوادي زمن شبابه، وما آل إليه اليوم، استطاع الشاعر أن يدفع

بالأمل إلى المستقبل .

يستشف من خلال الحاضر المستقبل الزاهر فارتقى بخياله إلى العمق النفسي لسكان المنطقة

الذين استبشروا خيرا لتعود الحياة من جديد.

بعدهما كان يخيف السكان إثناء فيضانه أصبح مسالما، نسب إليه صفات الإنسان المتخلق،

و أنزله منزلة العاقل، فهجرة السكان كان لها مبررها وهاهم اليوم يتجمعون حوله في قرى نموذجية ارتفعت فوقها الأعلام الوطنية وأحاطت بها الأعمدة الكهربائية، تدب فيها الحياة من جديد وبذلك إسترجع الوادي أنفاسه

\*كنت ميت واليوم حييت

ما تعبيت

كنت طافي واليوم ضويت

كي تمنيت

بهذا تصان كرامة الوادي الغالي عند الشاعر أحمد كرومي.

\*ظرك تحمد ريك ولا تليت حيران

دايرين اغرسوا الأشجار والدوالي

راه سموك غالي ماطاح

فيك الأرباح

يا اللواد الغالي

لجأ الشاعر إلى هذا المكان حيث قضى جل عمره في مصاحبته حتى في أملك الأوقات زمن الحرب والسلام وإذ يضيف عليه جملة من القيم من خلال التناقضات البقاء والاندثار وإذ يعيش هذا الموقف ليسجد صناديد المنطقة الذين غابوا مع موته وكان العهد بينهما وفيها.

را الموت اللي ردتهم تديك

غياب الأهل يساوي غياب الوادي، والتغيير الذي حدث للوادي حصل للسكان أيضا وبذلك

تسقط حماية الوادي، ويتحرر الشاعر من كابوس خياله.

هكذا وجد وادي قير العناية التامة من الشعراء الشعبيين قدموا صورته التراجدية ليبقى شاهدا على تعمير المنطقة، ومنبع رزق لسكانه، هذا ما جسده الثورة الزراعية في مرحلتها الأولى، حينما وصل منتوج المنطقة إلى شمال الوطن . وأحسب أن مكانة وادي قير هي التي حررت مخيلة الشعراء الشعبيين فراحت تسبح في هذا الفضاء الواسع، لتقدم هذه الصور المتباينة مؤثرة في نفسية المتلقي، وتلك هي جمالية الإبداع الفني .

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 بشير زهدي مقدمة في الميثولوجيا مجلة المعرفة 15 وزارة الثقافة والإرشاد القومي سوريا ص 27
- 2 محمد عجينة موسوعة أساطير العرب دار الفارابي بيروت الطبعة الأولى سنة 1994 ص 261
- 3 عبد القادر فيدوح شعرية النص ص 94
- 4 بشير زهدي م ن ص 29
- 5 عبد القادر فيدوح م.ن. ص 98
- 6 الزهرة إبراهيم الانتوبولوجيا والانتروبولوجيا الثقافية النايا للدراسات ط 1 2009 سوريا ص 21

- 7 بركة يوشيبة شعراء ذوي منيع الشعبيون ص 264
- 8 سورة الانبياء الآية 30
- 9 سورة النور الآية 45
- 10 عبد المجيد ميزان النظرية الاقتصادية عند ابن خلدون ش ون ت الجزائر 1981 ص 245
- 11 محمد غنيمي هلال الرومانتيكية نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ص 24
- 12 مصطفى تيلون مدخل عام في الانتوبولوجيا منشورات الاختلاف الطبعة الاولى 2011 ص 87
- 13 مصطفى تيلون م ن ص 38
- 14 محمد عجينة م ن ص 252
- 15 كامل عبد المالك رؤى العلم المتغيرة الطبعة الاولى 2008 دار مصر المحروسة القاهرة ص 16
- 16 عبد الله الغدامي تشريح النص المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة الثانية 2006 ص 18
- 17 كامل عبد المالك م ن ص 50